مجلة التراث

J-ALT

2017/ Vol:7 N°04

Available online at http://www.asjp.cerist.dz

براعة الاستهلال ودورها في التشكيل النصي

فاتحة سورة القدر نموذجًا

الـدُّكتـــور : مصطفى أحمد قنبر

وزارة التعليم و التعليم العالي / دولة قطر

الملخص

أعجز النسيج القرآني بإحكامه ودقته نظمه أرباب البلاغة وشداة الفصاحة منذ أن أضاءت حروفه وكلماته فضاء هذا الكون؛ فسلَّموا بأن هذا النص الذي تنزَّل به جبريل على السلام من رب العزة جل وعلا على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ـ بتشكيله المبهر يسمو فوق مستوى صناعة البشر

الكلمات المفتاحية: براعة الاستهلال ، التشكيل النصي

مقدِّمـــــــــة

أعجز النسيج القرآني بإحكامه ودقته نظمه أرباب البلاغة وشداة الفصاحة منذ أن أضاءت حروفه وكلماته فضاء هذا الكون؛ فسلَّموا بأن هذا النص الذي تنزَّل به جبريل على السلام من رب العزة جل وعلا على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ـ بتشكيله المبهر يسمو فوق مستوى صناعة البشر.

وقد جذبت فواتح السور القرآنية انتباه الباحثين في القديم والحديث فانبرى جلَّ منهم لخوض غمار هذا المبحث الشريف، وشمروا عن سواعدهم وحملوا ما استطاعوا من أدوات العلم المتاحة في عصورهم لاستكناه أسرار هذه الفواتح ما بين حروف مقطعة، إلى ألفاظ تامة المبنى والمعنى، ومن جمل خبرية اسمية وفعلية، إلى جمل إنشائية متباينة الأشكال متنوعة الأغراض.

وكان أهل البيان منهم قد قرروا أن: "مِنَ الْبَلَاغَةِ حُسْنُ الِابْتِدَاءِ وَهُوَ أَنْ يَتَأَنَّقَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّمْعَ. فَإِنْ كَانَ مُحَرَّرًا أَقْبَلَ السَّامِعُ عَلَى الْكَلَامِ وَوَعَاهُ وَإِلَّا أَعْرَضَ عنه، ولو كَانَ الْبَاقِي فِي نِهَايَةِ الْحُسْنِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُؤْتَى فِيهِ بِأَعْذَبِ اللَّفْظِ وَأَجْزَلِهِ وَأَرَقِّهِ وَأَسْلَسِهِ وَأَحْسَنِهِ نَظْمًا وَسَبْكًا وَأَصَحِّهِ مَعْنًى وَأَوْضَحِهِ وَأَخْلَاهُ مِنَ التَّعْقِيدِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ الْمُلْبِسِ أَوِ الَّذِي لَا يُنَاسِبُ."([1])

ويرى ابن معصوم أن حسن الابتداء ـ ويسمى براعة المطلع ـهو أن يتألق المتكلم في أول كلامه، ويأتي بأعذب الألفاظ، وأجزلها وأرقها وأسلسها وأحسنها، نظماً وسبكاً، وأصحها مبنيٌ، وأوضحها معنىً وأخلاها من الحشو، والركة والتعقيد.([2])

وقد قيل: ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيما يورده من كلامه في أربعة مواضع، أولها: المطلع، لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن، فإن كان حسناً جامعاً للشروط التي ذكروها في حسن الابتداء، أقبل السامع على الكلام فوعي جميعه، وإن كانت حالة عن الضد من ذلك، مجَّه السمع، وزجّه القلب ونبت عنه النفس، وإن كان الباقي في غاية الحسن. والموضع الثاني:المخلص. والثالث: حسن الطلب. والرابع: الختام.([3])

ويري ابن القيم أن حسن المطالع و المبادي دليلٌ على جودة البيان،وبلوغ المعاني إلى الأذهان؛فإنّه أول شيء يدخل الأذن،و أو لمعنى يصل إلى القلب،وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل
4

وقد تنوعت افتتاحيات السور في هذا الكتاب الحكيم، وقد حملت إلينا بتنوّعها أسرارا، وخصائص لا يمكن أن تطالها قدرة البشر، وإن حاولت البشريّة يوما فلسوف تخلّف فيمن عبر. وقد استوقفت فواتح السور القرآنية الباحثين في هذا النص الشريف، إذ تعددت أنماطها، وتباينت مكوناتها: طولا وقصرا، وإنشاءً وخبرا،... وقد أحصى أحد الباحثين المحدثين أنواع الفواتح في سورة القرآن وهي (مائة وأربع عشرة)سورة؛ فبلغتأنواعها عند أهل هذا الفن عشرة أنواع:

الأول: الثناء على الله تعالى.

الثاني: حروف التهجّي.

الثالث: النداء بأنواعه.

الرابـع: الجمل الخبرية.

الخامس: القسم بأنواعه.

السادس: الشرط بـ (إذا).

السابع: الأمر بأنواعه.

الثامن: الاستفهام بأنواعه.

التاسع: الدعاء.

العاشر: التعليل.([5])

وَقَدْ أَتَتْ جَمِيعُ فَوَاتِحِ السُّوَرِ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَبْلَغِهَا وَأَكْمَلِهَا كَالتَّحْمِيدَاتِ وَحُرُوفِ الْهِجَاءِ وَالنِّدَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.وَمِنَ الِابْتِدَاءِ الْحَسَنِ نَوْعٌ أَخَصُّ مِنْهُ يُسَمَّى بَرَاعَةَ الِاسْتِهْلَالِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَمِلَ أَوَّلُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يُنَاسِبُ الْحَالَ الْمُتَكَلَّمَ فِيهِ وَيُشِيرُ إِلَى مَا سِيقَ الْكَلَامُ لِأَجْلِهِ.([6])

وحسن الابتداء هذه تسمية ابن المعتز، وأراد بها ابتداءات القصائد، وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وخصوا بها ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله وقد وقع في أثناء القصيدة.وقد روى أن أحسن ابتداء ابتدأ به مولد قصيدة قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي، حيث يقول:

هل إلى أن تنام عيني سبيل ... إن عهدي بالنوم عهد طويل.

وإذا نظرت إلى فواتح السور الفرقانية جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه.([7])

وأكد ذلك النويري مبينًا أهمية ذلك للكاتب، قائلا: " هذه تسمية ابن المعتزّ، وأراد بها ابتداءات القصائد، وفرّع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده؛ والكاتب أشدّ ضرورة إلى ذلك من غيره ليبتني كلامه على نسق واحد دلّ عليه ـ من أوّل علمبها ـ مقصده ، إما في خطبة تقليد، أو دعاء كتاب. "([8])

وقد سبق إلى ذلك الجاحظ فيما نقله عن ابن المقفع حين قال:" ليكنْ في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته. كأنه يقول: فرّق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت." ([9])

وقد شرطوا في براعة الاستهلال، أن يكون مطلع القصيدة دالًا على ما بنيت عليه، مشعرًا بغرض الناظم، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو، وكذلك في النثر، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان، وإن لم يحصل له براعة الاستهلال فليجتهد في سلوك ما يقوله في حسن الابتداء.وما سمي هذا النوع براعة الاستهلال إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه، عند ابتداء رفع صوته به، ورفع الصوت في اللغة هو الاستهلال، يقال: استهل المولود صارخًا، إذا رفع صوته عند الولادة. وأهل الحجيج، إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، وسمي الهلال هلالًا، لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته.([10])

وفي براعة الاستهلال إلماحٌ إلى المقصود الأول من النّص الأدبي، وإبداعٌ يَجْذبُ الانتباه، ويأسِرُ المتلَقِّي سامعًا أو قارئًا، مع حُسْنِ سَبْكٍ، وعذوبة لفظٍ، وصحَّةِ معنىً، ومن البديع في البدء ذِكْرُ مُجْمل الموضوع أو مجمل القصة قبل التفصيل.([11])

وأحسن براعة الاستهلال موقعاً، وأبلغها معنى، فواتح صور كلام الله، سيما حروف التهجي، فإنها توقظ السامعين للإصغاء إلى ما يرد بعدها، لأنهم إذا سمعوها من النبي الأمي علموا أنها والمتلو بعدها ـ من جهة الوحي. وفيها تنبيه على أن المتلو عليهم من جنس ما ينظمون منه كلامهم، مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله.([12])

والعلم الأسنى في ذلكسورة الفاتحة، التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده.كما قال البيهقي في شعب الإيمان: "أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ هَانِئٍ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ صُبَيْحٍ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: " أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةً وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ مِنَ السَّمَاءِ أَوْدَعَ عُلُومَهَا أَرْبَعَةً مِنْهَا: التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ الْأَرْبَعَةِ فِي الْقُرْآنِ، ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ الْمُفَصَّلِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، فَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَهَا كَانَ كَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَ جَمِيعِ كُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ".([13])

وقد وُجِّهَ ذلك، بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن، وقامت بها الأديان أربعة: الأصول، ومداره على معرفة الله وصفاته. وإليه الإشارة برب العالمين الرحمن الرحيم، ومعرفة النبوات، وإليه الإشارة، بالذين أنعمت عليهم، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة، بمالك يوم الدين، وعلم العبادات، وإليه الإشارة، بإياك نعبد، وعلم السلوك وهو حمل النفس على الآداب الشرعية، والانقياد لرب البرية، وإليه الإشارة، بإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم، وعلم القصص وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، ليعلم المطلع على ذلك، سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه، وإليه الإشارة بقوله: صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فنبَّه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة.([14])

أما عن براعة الاستهلالفي مطلع القصيدة فهو كونه دالاً على ما بنيت عليه من مدح، أو هجاء، أو تهنئة، أو عتب؛ أو غير ذلك. فإذا جمع المطْلَعُ بين حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال، كان هو الغاية التي لا يدركها إلا مصلي هذه الحلبة، والبراعة: مصدر، قولهم برع الرجل براعة، أي فاق أصحابه في العلم وغيره.([15])

قال الخطيب القزويني: وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال، كقول أبي تمام يهنئ المعتصم بالله بفتح عمورية، وكان أهل التنجيم زعموا أنها لا تفتح في ذلك الوقت:

السَّيْـفُ أَصْـدَقُ إِنْــبَاءً مِنَ الكُـتُبِفي حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

بيضُ الصَّفائحِ، لاَسودُ الصَّحائفِ، فيمُتُونِهِنَّ جــلاءُ الشَّك والرِّيَـبِ

وقول أبي محمد الخازن ينهئ ابن عباد بمولود لبنته:

بُشرى فَـقَد أَنجـزَ الإِقـبال ما وَعـدا وَكَوكَب المجد في أُفق العُلا صَعَدا ([16])

سورة القدر بين سور القرآن:

تقع السورة الكريمة في الجزء الثلاثين من القرآن، والسّورة مكيّة عند بعض المفسّرين، مدنية عند الأكثرين. آياتها ستّ في عدّ الشام، وخمس عند الباقين؛ وكلماتها ثلاثون. وحروفها مائة واثنتا عشرة. فواصل آياتها على الرّاءِ. سمّيت سورة القَدْر؛ لتكرُّر ذكره فيها.ومعظم مقصود السورة: بيان شرف ليلة القدر في نصِّ القرآن، ونزول الملائكة المقرّبين من عند الرحمن، واتصال سلامهم طوَال اللَّيل على أَهل الإِيمان، في قوله: "حتى مَطْلَعِ الفجر".([17])

قال ابن الزبير الغرناطي: سورة القدر وردت تعريفا بإنزال ما تقدم الأمر بقراءته لما قدمت الإشارة إلى عظيم أمر الكتاب، وأن السلوك إليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب، أَعْلَمَ سبحانه بليلة إنزاله وعرفنا بقدرها؛ لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا، ونبحث على الاجتهاد في العمل؛ لعلنا نوافقها. وهي كالساعة في يوم الجمعة في إبهام أمرها مع جليل قدرها، ومن قبيل الصلاة الوسطى. ولله سبحانه في إخفاء ذلك أعظم رحمة، وكأن في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزَّل فيها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم، ووضح اتصالها بها.([18])

وعن وجه التناسب بين السورة وما قبلها حكى الخطابي أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة القدر عقيب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكتابة في قوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) إشارة إلى قوله: (اِقْرَأْ). قال القاضي أبو بكر بن العربي. وهذا بديع جدًا.([19])

وقد أضاف محقق كتاب الأسرار مناسبة أخرى عدَّها خفية، قائلا: وهناك مناسبة أخرى خفية؛ هي: أنه تعالى لما ختم العلق بالأمر بالسجود والاقتراب من الله، وكان المقصود من الاقتراب التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلِّي، والصلاة لا تكون إلا بقرآن، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمة في ذاته، ورحمة في الزمان الذي نزل فيه وهو ليلة القدر التي تتنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون.([20])

وفي بحث العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها ذكر جلال الدين السيوطي أن السورة الكريمة بُدئت بذكرالليل، وخُتمت بمطلع الفجر.([21])

أما عن اتصالها بما بعدها وهي سورة البينة فقد أبان العلامة البقاعي عن ذلك بقوله: "لما أخبر سبحانه وتعالى أن الليلة الشريفة التي صانها بنوع خفاء في تنزل من يتنزل فيها وفي تعيينها لا تزال قائمة على ما لها من تلك الصفة حتى يأتي الفجر الذي يحصل به غاية البيان، أخبر أن أهل الأديان سواء كان لها أصل من الحق أم لا لم يصح في العادة الجارية على حكمة الأسباب في دار الأسباب أن يتحولوا عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر، وهو القرآن المذكور في القدر والرسول المنزل عليه ذلك، فقال (لم يكن)..." ([22])

البنية التركيبة لفاتحة السورة:

لميكن تصنيف البنية التركيبية لفاتحة سورة القدر بأنها جملة خبرية مقصور على تلكم السورة الكريمة، إذ الاستهلال بالجملة الخبرية جاء في ثلاث وعشرين سورة في القرآن الكريم.([23]) ولم تكن مفردات البنية التركيبية للسورة الكريمة في أكثرها حكرًا عليها، إذ افتتحت ثلاث سور كريمات بذات المفردات المكونة للجملة الخبرية، الأولى تقع في ذات الجزء الثلاثين الذي وضعت فيه سورة القدر وهي سورة الكوثر، قال تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ." الكوثر/1، أما السورة الثانية فهي في سورة نوح التي جاءت في الجزء التاسع والعشرين، قال تعالى: " إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ." نوح/1. ثمَّ سورة الفتح وقد جاءت في الجزء السادس والعشرين، قال سبحانه: " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" الفتح/1. وتعد فاتحة سورة نوح عليه السلام من أطول الجمل الخبرية بين السور الأربع، تلتها فاتحة سورتي الفتح والقدر، ثم سورة الكوثر.

وقد تصدر فاتحة السور الأربع أداة التوكيد (إنَّ) واتصل بها اسمها الضمير(نا)، وجاء الخبر جملة فعلية فعلها ماضٍ: (فَتَحْنَا)،(أَرْسَلْنَا)، (أَنْزَلْنَا)،(أَعْطَيْنَا). وقد اتصل بالأفعال الأربعة فاعلها ضمير الرفع (نَا)، أما المفعول به فكان وضعه مختلفًا في الفواتح الأربع ففي سورة الفتح خلت الجملة منه، وفي سورة نوح جاء اسما ظاهرا (نُوحًا)، وفي سورة القدر جاء ضميرا متصلا، أما في سورة الكوثر فقد جاءت الجملة بمفعولين: الأول: ضمير النصب المتصل (الكاف)، والثاني: الاسم الظاهر (الْكَوْثَرَ) حيث إن فعلها (أَعْطَى) من الأفعال التي تنصب مفعولين.

أما عن المعْنِّى بالخطاب في فاتحة السور الأربع، فقد كان محددًا من خلال الجار والمجرور (لَكَ) في سورة الفتح، ومن خلال الضمير المتصل بالفعل (أَعْطَيْنَاكَ) والمقصود به في السورتين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. أما الخطاب في سورتي نوح والقدر فكان عامًا لكل متلقٍ، إذ خلت فاتحة السورتين الكريمتين من تخصيص الخطاب على نقيض ما رأينا في سورتيّ الفتح والكوثر، وإذا كان الخطاب في الكتاب الحكيم للمتلقي الأول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مصداقًا لقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)" سورة النحل ـ فإن من المسلم به أن الخطاب القرآني هو كل متلق لهذا الذكر الحكيم في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما عن البنية التركيبة لفاتحة السورة الكريمة فقد جاءت على النحو الآتي:

إنـ(حرف التوكيد والنصب)+ نا(اسم إنَّ/ضمير متصل للمتكلم)+ أَنزَلْ(فعل ماض)+ ـنَا (ضمير متصل للمتكلم/فاعل) + ـهُ(ضمير متصل غائب/ مفعول به)+ فِي لَيْلَةِ (جار ومجرور)+ القدر (مضاف إليه).

بدئ هذا الاستهلال البارع المعجز بحرف التوكيد (إنَّ)، وقد اتفق جمهور النحاة على أنَّ (إنَّ) تدخل على الجملة الاسمية لإفادة التوكيد، يقول سيبويه: "معنى: إنّ زيدًا منطلقٌ، زيدٌ منطلقٌ. وإنّ دخلت توكيدًا، وهي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده."[24] ومن المعلوم أن (إنَّا) أصله (إنَّنا) فحذفت
النون لاجتماع النونات ولأنها زائدة.([25])

ويلاحظ أن التوكيد باستخدام (إنّ) ليس لطرف معين في الجملة؛ وإنما يفيد توكيد العلاقة أو النسبة بين العنصر المتقدم المحمول عليه أو المسند إليه الحديث، وجميع العناصر أو المحمولات التي يتكون من مجموعها التفسير أو الوصف. [26] يقول الرضي في شرح الكافية: "وإنّ لتأكيد الجملة" .[27] وقد أشرك الزمخشري (أنَّ) معها في ذات المعنى بقوله: "إنَّ وأنَّ تؤكدان مضمون الجملة وتحققانه".[28] وكذلك ابن هشام في المغني، والرماني في كتابه معاني الحروف.[29]

إذنْ فالتوكيد جاء لغرض تقوية مضمون الجملة والنصِّ والتشديد على تحققه، وينسحب هذا الغرض ليشمل كل المعاني التي حملتها بقية آيات السورة الكريمة. وقد اتصلت بهذه الأداة اسمها الدالة على تعظيم الذات العلية، يقول الرازي: وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: إِنَّا يُرَادُ بِهِ التَّعْظِيمُ، وَحَمْلُهُ عَلَى الْجَمْعِ مُحَالٌ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ دَلَّتْ عَلَى وَحْدَةِ الصَّانِعِ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْآلِهَةِ كَثْرَةٌ لَانْحَطَّتْ رُتْبَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ الْإِلَهِيَّةِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَادِرًا عَلَى الْكَمَالِ لَاسْتَغْنَى بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَكَوْنُهُ مُسْتَغْنًى عَنْهُ نَقْصٌ فِي حَقِّهِ فَيَكُونُ الْكُلُّ نَاقِصًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَادِرًا عَلَى الْكَمَالِ كَانَ
نَاقِصًا،فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: إِنَّا مَحْمُولٌ عَلَى التَّعْظِيمِ لَا عَلَى الْجَمْعِ.([30])

إن هذا الضمير الذي تصدر جملة الاستهلال ليكون اسما للحرف الناسخ المؤكد، ثم جاء ثانية ليكون فاعلا في جملة الخبر الفعلية ـ إنما يحيل إلى عنصر إشاري خارجي أو ذات تقع خارج النص اللغوي، وهي الذات الإلهية وذلك للحديث عن أمر جليل، يريد الخالق من خلاله أن ينسب الفعل إليه في صورة لا تحتمل الشك.([31])

وعن تصدر هذا الاستهلال بأداة التوكيد (إنَّ) والإخبار عنها بالجملة الفعلية يقول العلامة ابن عاشور: " اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى تَنْوِيهٍ عَظِيمٍ بِالْقُرْآنِ فَافْتُتِحَتْ بِحَرْفِ (إِنَّ) وَبِالْإِخْبَارِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَكِلَاهُمَا مِنْ طُرُقِ التَّأْكِيدِ وَالتَّقَوِّي.وَيُفِيدُ هَذَا التَّقْدِيمُ قَصْرًا وَهُوَ قَصْرُ قَلْبٍ لِلرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِي نَفَوْا أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مُنَزَّلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى."([32])

ومعنى صيغة الماضي التي جاء عليها الفعل (أَنْزَلنَا)إنَّا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر وقضينا به وقدرناه في الأزل، ثم إن الإنزال يستعمل في الدفع، والقرآن لم ينزل جملة واحدة بل أُنزل منجمًا مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة، وهذه السورة من جملة ما أنزل، وجوابه أن المراد أن جبرائيل نزل به جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا وأملاه على السفرة أي الملائكة الكاتبين في تلك السماء، ثم كان ينزل على النبي عليه السلام منجمًا على حسب المصالح وكان ابتداء تنزيله أيضا في تلك الليلة.([33]) وقريب من هذا ما رآه صاحب البحر المديد، إذ قال: " والمراد بإنزاله: إمّا إنزاله كله إلى سماء الدنيا، كما رُوي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم نزل نجوماً في ثلاثٍ وعشرين سنة، وإمّا ابتداء نزوله، وهو الأظهر "([34])

أما المفعول به وقد اتصل بالفعل فجاء ضميرًا للغائب دون أن يوجد في النص عنصر إشاري يحال إليه، وقد انبرى جمع من المفسرين لبيان ما يحيل إليه هذا الضمير، وعلة مجيئه دون التصريح به. قال الزجاج: "الهاء ضمير القرآن ولم يجر له ذكر في أول السورة ولكنه جرى ذكرهفيما قبلها، وهو قوله؛ (حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ)، وهي لَيْلة القَدْرِ.([35])

وقال مكي ابن أبي طالب:"هذا إضمار لم يتقدم له ذكر في السورة، لأنه قد (عرف)، وقيل: إنما جاز ذلك، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة."([36]) ويفهم من كلام هذا العلامة أن القول بأن النظرة الشمولية في المعالجة البحثية عند مقاربة النص القرآني على أنه وحدة نصية واحدة لم يكن شيئًا غير معروف لديهم ـ قول فيه كثير من الشطط، والتراث العلمي لهؤلاء الأفذاذ خير شاهد على ذلك، وهذا يدلل على عمق البحث اللغوي العربي و أسبقيته بقرون عما قال به علماء الدراسات النصية المحدثون.

وفصل السمين الحلبي القضية قليلا، فقال: " والضمير في «أَنْزَلْناه» الظاهرُ عَوْدُه للقرآن: إمَّا الملفوظِ به في قولِه قبل ذلك {على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن} [الإسراء: 88]، ويكون ذلك جَرْياً على قاعدةِ أساليب كلامِهم، وهو أَنْ يستطردَ المتكلمُ في ذِكْر شيءٍ لم يَسْبِقْ له كلامُه أولاً، ثم يعودُ إلى كلامِه الأولِ، وإمَّا للقرآنِ غيرِ الملفوظ أولاً؛ لدلالة الحالِ عليه كقولِه تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر}."([37])

وقد أجمع على ذلك كثير من المفسرين في القديم والحديث. ([38])

وعن علة الإضمار دون التصريح قال الزمخشري: " أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه."[(39)]وأكد الرازي قول الزمخشري وتوسع قليلا بذكر أمثلة، قال: " أَنَّهُ جَاءَ بِضَمِيرِهِ دُونَ اسْمِهِ الظَّاهِرِ شَهَادَةً لَهُ بِالنَّبَاهَةِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ التَّصْرِيحِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ فِي السُّورَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ أَبِي جَهْلٍ وَلَمْ يَخْفَ عَلَى أَحَدٍ لِاشْتِهَارِهِ، وَقَوْلُهُ: فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [الْوَاقِعَةِ: 83] لم يذكر الموت لشهرته،"([40])وعلل النيسابوري للإضمار دون التصريح قائلا:

" الضمير في إِنَّا أَنْزَلْناهُ للقرآن، إما لأن القرآن كله في حكم سورة واحدة، وإما لشهرته ومن نباهة شأنه كأنه مستغن عن التصريح بذكره.[41]

أمَّا ابن عطية ووافقه أبو حيان، فقد رأي في مجيء الضمير للقرآن دون التصريح تفخيما وتحسينا لهذا الكتاب العزيز.[42] كما يؤكد الكوراني أن الإضمار قد فخّم شأن القرآن؛ لأنه العلم الذي لا يذهب الوهم إلى غيره.[43] ولم يذهب بعيدًا صاحب (إرشاد العقل السليم) حين قال أنَّ هذا: " تنويهٌ بشأنِ القرآنِ الكريمِ وإجلالٌ لمحلِه بإضمارِهِ المؤذنِ بغايةِ نباهتِهِ المغنيةِ عن التصريحِ بهِ كأنهُ حاضرٌ في جميعِ الأذهانِ."([44]) وتابعه في ذلك صاحب(روح البيان).([45]) وقالالشهاب الخفاجي: "أفاد ما ذكر تعظيمه؛ لأنه يشعر بأنه لعلوّ شأنه كأنه حاضر عند كل أحد؛ فيعود الضمير على ما هو في قوّة المذكور، والنباهة الشهرة والشرف"([46]) أما ابن عجيبة فلم يختلف عن سابقيه غير أنه رأى مرجع الضمير هو المقروء في السورة السابقة، يقول: "وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للإيذان بغاية ظهوره، كأنه حاضر في جميع الأذهان، وقيل: يعود على المقروء المأمور به في قوله:{اقْرَأْ}[العلق: 1]، فتتصل السورة بما قبلها."([47])أما العلامة ابن عاشور فقد رأي أن: " الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْقُرْآنِ دُونَ الِاسْمِ الظَّاهِرِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ حَاضِرٌ فِي أَذْهَانِ الْمُسْلِمِينَ لِشِدَّةِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ فَكَوْنُ الضَّمِيرِ دُونَ سَبْقِ مَعَادٍ إِيمَاءً إِلَى شُهْرَتِهِ بَيْنَهُمْ."([48])

ومنالوجوه التي فُخِّمَ بها وعَظم القرآن في جملة الاستهلال الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه وهو ليلة القدر كما قال بذلك جمع من السادة المفسرين.([49])

وببراعتهالمعهودة في النظر والتدبر ينقلنا العلامة ابن عاشور نقلة لم يُسبق إليها عند بيانه للتركيب الإضافي الذي خُتم به هذا الاستهلال، يخرج منها إلي بيان الدور المحوري الذي قامت به جملة الاستهلال في تشكيل المعالم النصية لما تلاها من آي السورة الكريمة، يقول: "وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ: اسْمٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلَّيْلَةِ الَّتِي ابْتُدِئَ فِيهَا نُزُولُ الْقُرْآنِ. وَيَظْهَرُ أَنَّ أَوَّلَ تَسْمِيَتِهَا بِهَذَا الِاسْمِ كَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَبِذَلِكَ يَكُونُ ذِكْرُهَا بِهَذَا الِاسْمِ تَشْوِيقًا لِمَعْرِفَتِهَا وَلِذَلِك عقب بقوله: وَما أَدْراكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. [الْقَدْرِ: 2]."([50]) ولم يكن هذا التشويق الذي أبان عنه الشيخ إلا مدخلا للكشف عن أسرار هذه الليلة والذي حملته الآيات التي مَهَّدَ لها ببراعةٍ ذلكم الاستهلال.

ويفيض التركيبالإضافي (لَيْلَةُ القَدْرِ) بكنوز من المعاني تضافرت فيها السياقات المختلفة، ولعل العلامة القرطبي قد حاز قَصَبَ السبق في ذلك حين قال: " سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْرٌ وَلَا خَطَرٌ يَصِيرُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ذَا قَدْرٍ إِذَا أَحْيَاهَا. وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَنْزَلَ فِيهَا كِتَابًا ذَا قَدْرٍ، عَلَى رَسُولٍ ذِي قَدْرٍ، عَلَى أُمَّةٍ ذَاتِ قَدْرٍ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يَنْزِلُ فِيهَا مَلَائِكَةٌ ذَوُو قَدْرٍ وَخَطَرٍ. وَقِيلَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ فِيهَا الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ وَالْمَغْفِرَةَ. وَقَالَ سَهْلٌ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ فِيهَا الرَّحْمَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ الْخَلِيلُ: لِأَنَّ الْأَرْضَ تَضِيقُ فِيهَا بِالْمَلَائِكَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ.[الطلاق: 7]أي ضيق."([51])

وبنظرة تأملية ثاقبة يكشف العلامة الطيبي في حاشيته على الكشاف عن دور جملة الاستهلال فيما جاء بعدها فيقول: " والظاهر الرفع من مقداره حيث أنزله في هذه الليلة، فعدل ليؤذن بأن الليلة شرفت بنزوله فيها، وصارت ذات خطروشرف، فيلزم شرفه وخطره بالطريق الأولى، ثم ترقى في الرفع من مقدارها بقوله: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}، ثم إلى أعلى بقوله: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ}، ثم إلى أعلى بقوله: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا}."([52])

ويكشف هذا الاستهلال بما أكد عليه من عظِم لهذا الكتاب، وذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره، والثاني: أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه ـ عن رد مفحم للمتلقين من المشركين الذين شككوا في تنزيل هذا الكتاب من الحكيم الحميد. وقد سجل القرآن نفسه في أكثر من موضع مقولاتهم الظالمة والمفتراة ورد عليها.

لكنّ هذا الاستهلال ببراعته التي أماط اللثام عن بعض أسرارها سادتنا من المفسرين والعلماء يؤشرأن موضوع السورة قد يحتمل أكثر من محور، فقد يكون محور السورة أو موضوعها ذلكم المنزَّل (القرآن الكريم)، أو المنزَّل عليه صلى الله عليه وسلم، أو سبب الإنزال وعلته، أو الوقت الشريف الذي أُنزِل فيه. لكنَّ مجيء الآية الثانية بالاستفهامالذي أعقب الآية الأولي جعل محور السور وموضوعها مخصصًا لهذا الوقت الشريف الذي أضاءت فيه الدنيا بحروف هذا الكتاب الحكيم. ولذا أرى أن الاستهلال في هذه السورة يشمل الآيتين معا، أو لنقل إن الآية الثانية جاءت امتدادا أو مكملة للاستهلال الذي بدأته الآية الأولى.

الاستفهام ودوره في العملية الاتصالية:

نفى الاستفهام (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) المفخِّم لشأن وقت تشريف هذا التنزيل الحكيم وجه البسيطة، المشوق للمتلقي لما يكتنف هذه الليلة من بركات وما يلفها من بشريات ونفحات ـ كل الاحتمالات الأخرى لما يمكن أن يكون موضوعًا للسورة، والذي قد يتبادر إلى الأفهام إثر ما جاء في جملة الاستهلال.

ولم تكن البنية التركيبية لهذا الاستفهام الذي نحن بصدده مقتصرة على سورة القدر دون غيرها. بل تكررت اثنتا عشرة مرة في عديد من سور القرآن. ومنها ما جاء استكمالا للاستهلال في فواتح السور الثلاث: الحاقة، والطارق، والقارعة:

ـ " الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ(2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)" الحاقة.

ـ " وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2)" الطارق.

ـ " الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ(2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)" القارعة.

من هنا كان هذا الاستهلال بامتداده الذي جاء في بنية استفهامية هو المحدد لموضوع السورة، والمبين لمحورها وهو تخصيص الحديث عن زمن إنزال هذا الكتاب الخاتم في تلك الليلة المباركة (ليلةُ القدرِ).

وقد استوقفت هذه البنية في تلكم السورة الكريمة جمهرة المفسرين في القديم والحديث، ورأوا في هذه البنية التركيبية الإنشائية أنها: تعظيم وتعجيب لتلك الليلة المباركة،([53]) وتنبيهٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم على فضلها, وحثٌّ على العمل فيها،([54]) وتفخيمٌ لشأن تلك الليلة،([55]) وتعظيم وتشويق إلى خيرها،([56]) وتَفْخِيمٌ لِشَأْنِهَا، أَيْلَمْ تَبْلُغْ دِرَايَتُكَ غَايَةَ فَضْلِهَ،([57]) ودلالةٌ عَلى أنَّ علوِّ قدرِها خارجٌ عنْ دائرةِ درايةِ الخَلْقِ وَلاَ يدريَها إلاَّ علاَّمُ الغيوبِ،([58]) وتفخيمٌ لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا الله سبحانه.([59])

أما عن المتلقي وهو المخاطب الأول من قبل رب العزة جل وعلا رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن بعده أتباعه وكذا كل متلق لهذا الكتاب المحكم، فقد كشفت هذه البنية الاستفهامية عن عدم درايتهم بكنهها، وانتفاء أن يكون إدراك ماهيتها قد فطن إليه أي عقل بشرى، لذا تفضل المخاطِب جل في علاه ببيان: مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟، قال الفراء: " كل ما كَانَ فِي القرآن من قوله: «وَما أَدْراكَ» فقد أدراه، وما كَانَ من قوله:«وَما يُدْرِيكَ» فلم يدره.([60])

ولعل ما في هذه البنية من تفخيم وتشويق وتعظيم لشأن هذه الليلة ما يجعل عملية الاتصال اللغوي أكثر تفاعلا إذ المتلقي أضحى توّاقًا إلى ما غاب عن درايته، وموضوع الاتصال أو الرسالة بلغت درجة سامية من التفخيم والتعظيم، وصاحب الخطاب أو مرسله جل في علاه هو المحيط بعلم وكنه ذلك؛ إذتكفل سبحانه بإدراء نبيه ومصطفاه بما في هذه الليلة من فضل وتميز؛ مما يحقق أعلى مستويات التفاعل في العملية الاتصالية ويفي بمتطلباتها وما كان ذلك إلا لتوفر أركانها.

لفت أسلوب الاستفهام ببنيته تلك إلى تأكيد العلاقة بين جملة الاستهلال الخبرية وما جاء بعد هذا الاستفهام من جمل خبرية تميط اللثام عن موضوعات أو معانٍ فرعية يتشكل منها المعنى العام أو الرئيسي للسورة الكريمة تحقق الإجابة عن الإدراء الذي حمله هذا الاستفهام.

وقد جاء الإدراء من علام الغيوب لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن التميُّز في هذه الليلة إنما لثلاث فضائل لم تكن إلا فيها: الأولى: أن (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)، الثاني: أنها ليلة: " تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ"، الثالث: أنها " سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ".

خيرية التفضيل وعقلية المتلقي:

أما عن الإدراء الأول فكان قوله تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)، وقد نقل الماوردي في ذلك عدة أقوال أحدها: ليلة القدر خير من عمر ألف شهر, قاله الربيع. الثاني: أن العمل في ليلة القدر خير من العمل في غيرها ألف شهر, قاله مجاهد. الثالث: أن ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر, قاله قتادة. الرابع: أنه كان رجل في بني إسرائيل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد العدوّ حتى يمسي, ففعل ذلك ألف شهر, فأخبر الله تعالى أن قيام ليلة القدر خير من

عمل ذلك الرجل ألف شهر, رواه ابن أبي نجيح ومجاهد. الخامس: أن ملك سليمان كان خمسمائة شهر, وملك ذي القرنين كان خمسمائة شهر, فصار ملكهما ألف شهر, فجعل العمل في ليلة القدر خيرًا من زمان ملكهما.([61])

ويحتمل أن يكون ذكر ألف شهر على سبيل التمثيل، لا على التوقيت، أي: خير من ألف شهر وأكثر؛ إذ التقدير قد يكون لبيان العدد نفسه، وقد يكون لبيان شرف ذلك الشيء وعظمته؛ فلا يكون الغرض هو القصر على العدد، وهو كقوله: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)، ونحو ذلك.([62]) ويرى البيضاوي أنَّ قوله: خير من ألف شهر المراد به المبالغة في تفضيلها على غيرها مطلقًا.([63]) وَقِيلَ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ: أَلْفِ شَهْرٍ جَمِيعَ الدَّهْرِ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَذْكُرُ الْأَلْفَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ.([64])

لقد جاءت هذه البنية الخبرية الاسمية لهذه الآية الكريمة التي فيها من الثبوت والتحقق ـ لتخلع أعلى درجات المصداقية على هذا الخبر، فإذا نظرنا إلى صيغة هذا الخبر الذي جاء على أفعل التفضيل نجد أن جاء ليتوسط بين طرفي الأسلوب المفضل (لَيْلَةُ الْقَدْرِ) والمفضل عليه (أَلْفِ شَهْرٍ)، ولما كانت مزية المفضل مجهولة للمخاطَب، جيء بالمفضل عليه المعلوم (أَلْفِ شَهْرٍ) ليدرك المكانة العظمي لهذه الليلة.ومتى عُلمت مكانة المفضل عليه كما وكيفا بانت مكانة وعِظَم المفضَّل، وهمت النفوس إلى الحرص عليه واغتنامه.أما التصريح في رأس الآية بالتركيب الإضافي (لَيْلَةُ القدر) وكان حقّه الكناية؛ فذلك رفعٌ لمنزلتها؛ فإنَّ الاسم قد يُذكر بالصّريح في موضع الكناية؛ تعظيمًا وتخويفًا.

كما قال الشَّاعر:لا أَرى الموتَ يسبق الموتَ شيءٌ ... نغّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا.

فصرّح باسم الموت ثلاث مرّات؛ تخويفًا. وهو من أَبيات كتاب سيبويه.([65])

هكذا كان أسلوب التفضيل بما تصدره من تكرار لمحور السورة وموضوعها الرئيسي، وبما توسطه من أفعل التفضيل، وبما خُتم به من تركيب إضافي مألوف عند المتلقين في بيان مكانة هذه الليلة التي ما خطر فضلها على عقلية البشر ـ مبرزًا لمكانة هذه الليلة. ولا يخفى ما يفيده عدم التصريح بمجالات الخيرية من عموم الفضل وشموله، وترك العنان لعقلية المتلقي، فأي مجال يمكن تصوره في دائرة الخيرية فإن فضائل تلكم الليلة تفوقه وتنماز به من غيرها.

إنزال الكتاب والتنزُّل الملائكي:

لازالت أعناق المتلقين مشرئبة وآذانهم صاغية إثر التشويق الذي تغشَّاهم عن تلك الليلة، حتى بعد أن جاء الإدراء الأول بصيغته الخبرية المفعمة بالشمولية وعموم الفضائل. ولعل سائلا يسأل: لِمَ أو بِمَ صارت هذه الليلة خير من ألف شهر، هنا يأتي الإدراء الثاني ليَبِينَ عن بعض الفضل أو عن شيء من دلالاته، إنه يبدو في قوله تعالى: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ". وهو احتفاء الملأ الأعلى بهذه الليلة.

قال الشوكاني في تفسيره: "وَجُمْلَةُ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مُسْتَأْنَفَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِوَجْهِ فَضْلِهَا، مُوَضِّحَةٌ لِلْعِلَّةِ الَّتِي صَارَتْ بِهَا خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ."([66]) وقال صاحب (نظم الدرر): " لما عظمها، ذكر وجه العظم ليكون إعلاماً بعد إبهام

وهو أوقع في النفس فقال مستأنفاً:{تنزل} أي تنزلاً متدرجاً هو أصلاً على غاية ما يكون من الخفة والسرعة بما أشار إليه حذف التاء"([67]) وَالتَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِه:تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ هَذَا التَّنَزُّلَ مُتَكَرِّرٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ.([68])

وفي التفاتةٍ دلالية نصية يشرح العلامة ابن عاشور وجهًا من وجوه التماسك النصي أو ما يسمى بالحبك (Coherence) بين هذه الآية وما قبلها قائلا: " إِذَا ضَمَّ هَذَا الْبَيَانُ الثَّانِي لِمَا فِي قَوْلِهِ: وَما أَدْراكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ [الْقَدْرِ: 2] مِنَ الْإِبْهَامِ التفخيمي حصل مِنْهُمَا مَا يَدُلُّ دَلَالَةً بَيِّنَةً عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِثْلَ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ لِكُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْأَعْوَامِ تَقَعُ فِي مِثْلِ اللَّيْلَةِ مَنْ شَهْرِ نُزُولِ الْقُرْآنِ كَرَامَةً لِلْقُرْآنِ، وَلِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَلِلدِّينِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ، وَلِلْأُمَّةِ الَّتِي تَتْبَعُهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ مُعْظَمَ السُّورَةِ كَانَ لِذِكْرِ فَضَائِلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَمَا هُوَ إِلَّا لِلتَّحْرِيضِ عَلَى تَطَلُّبِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا، فَإِنَّ كَوْنَهَا خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ أَوْمَأَ إِلَى ذَلِكَ وَبَيَّنَتْهُ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَة. " ([69])

ولما كان إنزال هذا الكتاب الخاتم موكل به من قبل رب العزة جل في علاه الأمين جبريل عليه السلام: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(192)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195)" الشعراء. فإنعليه السلام ينزل في كل ليلة قدرٍ في كوكبة من الملائكة، وقد "خصَّه بياناً لفضله أو هو مع أشراف الملائكة أو هو خلق أكبر من الملائكة أو هو أمر تسكن إليه نفوس العارفين ويحصل به اليمن والبركة {فيها}"([70])

وكما كان الإنزال لهذا الكتاب معظمًا ومفخمًا لأنه من الله، كذا كان التنزُّل الملائكي (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)، وهذا الإذن يدل "عَلَى عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ: وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ [مَرْيَمَ: 64] وَقَوْلُهُ: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ [الْأَنْبِيَاءِ: 27]، وَفِيهَا دَقِيقَةٌ وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ: مَأْذُونِينَ، بَلْ قَالَ:بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَتَصَرَّفُونَ تَصَرُّفًا مَا إِلَّا بِإِذْنِهِ."([71])

أما عن علة إنزال هذا الكتاب فقد أفاضت الآيات الكريمة في بيان ذلك، لكن ما علة تنزل الملائكة في تلكم الليلة؟ جاء الجواب في ختام الآية " مِنْ كُلِّ أَمْرٍ "، قال أبو حيان في تفسيره: " مِنْ كُلِّ أَمْرٍ: مُتَعَلِّقٌ بِتَنَزَّلُ وَمِنْ لِلسَّبَبِ، أَيْ تَتَنَزَّلُ مِنْ أَجْلِ كُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللَّهُ لِتِلْكَ السَّنَةِ إِلَى قَابِلٍ."([72]) وقد نقل الرازي في تفسيره أنهم ينزلون لِيَرَوْا عِبَادَةَ الْبَشَرِ وَجِدَّهُمْ وَاجْتِهَادَهُمْ فِي الطَّاعَةِ.([73]) وقرئ«من كلامرئ» أي من أجل كل إنسان .([74]) وَرُوِيَ أَنَّهُمْ لَا يَلْقَوْنَ مُؤْمِنًا وَلَا مُؤْمِنَةً إِلَّا سَلَّمُوا عَلَيْهِ.([75])

وقد وقف ابن عاشور عند لفظة (كُلِّ) حيث رأى أنها مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مَعْنَى الْكَثْرَةِ لِلْأَهَمِّيَّةِ، أَيْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ عَظِيمَةٍ، كما أن تنوين(أَمْرٍ) لِلتَّعْظِيمِ، أَيْ بِأَنْوَاعِ الثَّوَابِ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.([76])كما أبان ـ يرحمه الله ـ عن علاقة الجملة بما قبلها بقوله: " وَاعْلَمْ أَنَّ مَوْقِعَ قَوْلِهِ: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها إِلَى قَوْلِهِ: مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، مِنْ جُمْلَةِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ [الْقدر: 3] مَوْقِعُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ أَوْ مَوْقِعُ بَدَلِ الِاشْتِمَالِ، فَلِمُرَاعَاةِ هَذَا الْمَوْقِعِ؛ فُصِلَتِ الْجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا وَلَمْ تُعْطَفْ عَلَيْهَا مَعَ أَنَّهُمَا مشتركتان فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تُفِيدُ بَيَانًا لِجُمْلَةِ:وَما أَدْراكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ [الْقَدْرِ: 2]، فَأُوثِرَتْ

مُرَاعَاةُ مَوْقِعِهَا الِاسْتِئْنَافِيِّ أَوِ الْبَدَلِيِّ عَلَى مُرَاعَاةِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِهَا بَيَانًا لِجُمْلَةِ: وَما أَدْراكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْبَيَانَ لَا يَفُوتُ السَّامِعَ عِنْدَ إِيرَادِهَا فِي صُورَةِ الْبَيَانِ أَوِ الْبَدَلِ بِخِلَافِ مَا لَوْ عُطِفَتْ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا بِالْوَاوِ لِفَوَاتِ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ تَنَزُّلَ الْمَلَائِكَةِ فِيهَا مِنْ أَحْوَالِ خَيْرِيَّتِهَا."([77])

خاتمة السورة وعمومية الخير والوفاء بالمشوق:

ثم جاءت الخاتمة في هذه السورة الكريمة لتشير إلى الخير العام الذي شمل هذه الليلة حيث غمر فضلها جماعة المؤمنين، وقد عبرَّ النص الكريم عن ذلك بقوله تعالى: "سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ".

وقد وقف كثير من المفسرين عند هذه الآية، وربط بينها وبين ما قبلها ومن أوائل هؤلاء العلامة الطبري الذي نقل عن قتادة (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ) أي هي خير كلها إلى مطلع الفجر، وعن مجاهد (سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) قال: من كلّ أمر سلام.([78]) وقال الزجاج في معني (سلام هي): أي لا داء فيها، ولا يستطيع الشيطانُ أن يصنع فيها سَيِّئاً.([79])ونقل هذا المعنى السمرقندي.([80]) وزاد الماوردي أن الملائكة تسلم على المؤمنين في ليلة القدر إلى مطلع الفجر، قاله الكلبي.([81]) ووافقه السمعاني،([82]) والبغوي ([83]) أما الرازي فقد صال وجال في تفسيره لهذه اللفظة الشريفة وذكر لها عدة أوجه، منها أوجه سُبِق بها، لكنَّ أكثر هذه الأوجه كانت من فتوحات الله عليه، فضلا عن استطراده لبعض الأوجه المسبوقة، ومحاولة ربطها بما قبلها، فقال في الوجه الأول من معاني سلام: أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ سَلَامٌ أَيْ تُسَلِّمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الْمُطِيعِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَنْزِلُونَ فَوْجًا فَوْجًا مِنِ ابْتِدَاءِ اللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ فَتَرَادَفَ النُّزُولُ لِكَثْرَةِ السَّلَامِ. ومن الأوجه التي ذكرها: أن اللَّيْلَةُ سَالِمَةٌ عَنِ الرِّيَاحِ وَالْأَذَى وَالصَّوَاعِقِ إِلَى مَا شَابَهَ ذَلِكَ، ومنها أَنَّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ سَالِمَةٌ فِي أَنَّ الْعِبَادَةَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَتْ كَسَائِرِ اللَّيَالِي فِي أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْفَرْضِ الثُّلُثُ الْأَوَّلُ وَلِلْعِبَادَةِ النِّصْفُ وَلِلدُّعَاءِ السَّحَرُ بَلْ هِيَ مُتَسَاوِيَةُ الْأَوْقَاتِ وَالْأَجْزَاءِ،وآخرها قوله: سَلامٌ هِيَ، أَيْ جَنَّةٌ هِيَ لِأَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ الْجَنَّةِ دَارَ السَّلَامِ أَيِ الْجَنَّةُ الْمَصُوغَةُ مِنَ السَّلَامَةِ.([84])

وممن نظر في المسألة نظرًا لغويا بيانيًا العلامة الطيبي في حاشيته على الكشاف، والعلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير.

قال صاحب الحاشية: أن {هِيَ}مبتدأ و{سَلَامٌ} الخبر، فقدم لإعطاء معنى الاختصاص. قال صاحب "الكشف": {هِيَ}ابتداء و{سَلَامٌ}خبر مقدم، وهو بمعنى الفاعل، أي: هي مُسلمة.([85])

أما ابن عاشور فقد قال بما أجمع عليه سابقوه، وزاد ببعض النكات اللغوية التي لم يُلتفت إليها من قبل، حيث قال: تَنْكِيرُ سَلامٌ لِلتَّعْظِيمِ. وَأُخْبِرَ عَنِ اللَّيْلَةِ بِأَنَّهَا سَلَامٌ لِلْمُبَالِغَةِ لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ بِالْمَصْدَرِ.وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ وَهُوَ سَلامٌ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لِإِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ، أَيْ مَا هِيَ إِلَّا سَلَامٌ. وَالْقَصْرُ ادِّعَائِيٌّ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِمَا يَحْصُلُ فِيهَا لِغَيْرِ الصَّائِمِينَ الْقَائِمِينَ، ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (سَلامٌ هِيَ) مُرَادًا بِهِ الْإِخْبَارُ فَقَطْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمَصْدَرِ الْأَمْرُ، وَالتَّقْدِيرُ:سَلِمُوا سَلَامًا، فَالْمَصْدَرُ بَدَلٌ

مِنَ الْفِعْلِ وَعَدَلَ عَنْ نَصْبِهِ إِلَى الرَّفْعِ لِيُفِيدَ التَّمَكُّنَ مِثْلَ قَوْله تَعَالَى: فَقالُوا سَلامًا قالَ سَلامٌ[الذاريات: 25]. وَالْمَعْنَى: اجْعَلُوهَا سَلَامًا بَيْنَكُمْ، أَيْ لَا نِزَاعَ وَلَا خِصَامَ.([86])

وفي كثير من نظراته اللغوية والبيانية يؤكد العلامة ابن عاشور على البنية الكلية الكبرى للنص القرآني، وذلك عبر النظر إلي النص ليس كبنى صغرى منفصلة ومستقلة تركيبيًا ودلاليًا، بل كبنى متصلة ومتماسكة ضمن الإطار العام للبنية الكلية الكبرى للنص، ولعل في هذا النظر العميق سبق في التحليل قبل أن تُعرف في أدبيات الدراسات النصية الحديثة.

يقول الشيخ: وحَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ غَايَةٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ: " تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ(4)سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(5)"وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْغَايَةِ إِفَادَةُ أَنَّ جَمِيعَ أَحْيَانِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَعْمُورَةٌ بِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّلَامَةِ، فَالْغَايَةُ هُنَا مُؤَكِّدَةٌ لِمَدْلُولِ لَيْلَةِ،لِأَنَّ اللَّيْلَةَ قَدْ تُطْلَقُ عَلَى بَعْضِ أَجْزَائِهَا كَمَافِي قَوْلِ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، أَيْ مَنْ قَامَ بَعْضَهَا.([87]) وقد أشار إلى ذلك سريعًا صاحب التبيان حين قال: «حَتَّى»: مُتَعَلِّقَةٌ بِسَلَامٍ؛ أَيِ الْمَلَائِكَةُ مُسَلِّمَةٌ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.([88]) وكذلك صاحب نظم الدرر بقوله: "واختير التعبير بـ «حتى»دون «إلى» ليفهم أنَّ لما بعدها حكم ما قبلها، فيكون المطلع في حكم الليلة."([89]) ونقل نفس المعنى ابن عاشور.([90])

ويعود ابن عاشور ليربط بين المعاني في هذه الآية وبين ما قبلها فيقول: " وَيُسْتَفَادُ مِنْ غَايَةِ تَنَزُّلِ الْمَلَائِكَةِ فِيهَا، أَنَّ تِلْكَ غَايَةُ اللَّيْلَةِ وَغَايَةٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ التَّابِعَةِ لِكَوْنِهَا خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَغَايَةُ السَّلَامِ فِيهَا."([91])

أما التركيب الإضافي (مَطْلَعِ الْفَجْرِ)، فقد قُرئت (مَطْلَعَ الفَجْرِ)، وَ(مَطْلِعِ الفَجْرِ) بفتح اللام والكسر، فمن فتح فَهوَ المصدَرُ بمعنى الطلع. تَقُول: طلع الفجر طلوعًاوَمَطْلَعًا.ومن قال مَطْلِع فهو اسم لوقت الطلوع وكذلك لمكان الطلوع، الاسم مَطْلِع بكسر اللام.([92]) وإذا كان بعض العلماء كأَبُوعُبَيْدَةَ وَالْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُمَا قد اخْتَارُوا فَتْحَ اللَّامِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، وَقَالُوا: الْكَسْرُ اسْمٌ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَلَا مَعْنَى لِاسْمِ مَوْضِعِ الطُّلُوعِ هاهنا.(93) فإن الزجاج قال بصحة القراءتين والمعنى في نظره: "ولا يزال ذلك السلام والبركة فيها {حتى} أي إلى{مطلع الفجر} أي: طلوعه، ووقت طلوعه، وموضع طلوعه." ([94])

وبعد فقد جاء استهلال السورة مشوقًا للمتلقي فجذب انتباهه بأهمية ما يحمله البيان الرباني، وأسره بأسلوبه الخلابالذي ظهر به، وزاد في التشويق بالاستفهام المفخّم لشأن ليلة انمازت من غيرها من الليالي، ثم أبان له بأسلوب التفضيل عن منزلة تلكم الليلة بين الليالي، وكان احتفاء الملأ الأعلى وتنزلهم قد أعطى مزية لها تدخلها ضم الخيرية التي فضلت بها، ثم تختم السورة بسمة عامة ربانية لتلكم الليلة وهي أنها (سلام)، وقد عمتها من مبتدئها حتى منتهاها بطلوع الفجر. وبذا يكون الخطاب القرآني في الاستهلال قد وفَّى بما شوَّق إليه المتلقي، وأبان له عما كان خفيا عنه واستحق أن يجذب الانتباه إليه.

الهوامـش:

(1)السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت 911هـ): الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (1394هـ/ 1974 م) 363/3.

(2) ابن معصوم (صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم، ت 1120هـ): أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف ـ العراق، ط1(1388هـ ـ 1968م)34/1.

(3)المرجع السابق، 34/1ـ35.

(4) ابن قيم الجوزية،الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمدبن أبي بكربن أيوب الزُّرعي الدمشقي،ت.٧٥١هـ):
كتاب الفوائد: المشوق إلى علوم القران وعلم البيان، عُني بتصحيحه: السيد محمد بدر النعساني، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1 (1327هـ) ص137.

(5)عبد القادر محمد منصور: موسوعة علوم القرآن، دار القلم العربي، حلب، ط1(1422 هـ – 2002 م)ص262.

(6) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 363/3.

(7) أبو الإصبع العدواني(عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (ت. 654هـ): تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (د.ت) ص 168.

(8)النويري (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، ت. 733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1(1423 هـ)133/7.

(9) الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ): البيان والتبيين ، دار ومكتبة الهلال، بيروت (1423 هـ) 114/1.

(10)ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري، ت. 837هـ):خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، دار البحارـ بيروت، الطبعة الأخيرة (2004م)30/1.

(11)عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني: البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1(1416 هـ – 1996م)559/2.

(12) ابن معصوم: أنوار الربيع في أنواع البديع، 55/1.

(13) البيهقي(أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، ت. 458هـ): شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي ـ الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي ـ الهند، ط 1(1423 هـ ـ 2003 م).وابن معصوم: أنوار الربيع في أنواع البديع، 54/1.

(14)ابن معصوم: أنوار الربيع في أنواع البديع، 54/1.

(15)المرجع السابق: 56/1.

(16) الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد، ت 739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة ، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1424هـ ـ2003م) ص324.

(17) الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، ت. 817هـ): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (1416 هـ – 1996م) 531/1.

(18) ابن الزبير الغرناطي(أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، ت. 708هـ): البرهان في تناسب سور القرآن ، تحقيق: محمد شعباني ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب (1410 هـ – 1990 م) ص372.

(19)المرجع السابق، ص184. وانظر: السيوطي:
أـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية،بيروت، ط1(1408 هـ – 1988 م) 54/1.

بـ أسرار ترتيب القرآن، تحقيق ودراسة: عبد القادر أحمد عطا ومرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة (د.ت)164،163.

(20)انظر: السيوطي: أسرار ترتيب القرآن، ص 164 هامش1.

([21])انظر: السيوطي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، مكتبة دار المنهاجللنشر والتوزيع، الرياض،ط1(1426 هـ) ص 82.

([22])البقاعي (إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، ت. 885هـ): نظم الدرري تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 22/ 185.

([23]) آلاء الحبر يوسف الدائم: فواتح السور وخواتيممهـا دراسة نصية تحليلية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الخرطوم (1427هـ ـ 2006م) ص10.

([24]) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر.ت180): الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت (د.ت) 2 /144.

([25]) أبو جعفر النَّحَّاس (أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، ت 338هـ): إعراب القرآن:وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1421 هـ) (5/ 165).

([26]) انظر: د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي، مكتبة الأنجلو المصرية،(1995م).ص 40.

([27]) الرضي: شرح الرضي على الكافية، الرضي (رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي. ت 688): شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. يحيى بشير مصري، القسم الثاني ـ المجلد الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1 (1417هـ -1996م) 2/394.

([28])الزمخشري جار الله (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ت. 538هـ): المفصل في صنعة الإعراب ، قدم له وبوبه: علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1 (1993) ص293.

([29]) انظر: ابن هشام: مغني اللبيب، ص 59. والرماني(أبي الحسن علي بن عيسى. ت 384): كتاب معاني الحروف، تحقيق: د. عبد الفتاح شلبي، دار الشروق، القاهرة، ط3 (1404- 1984) ص 112.

(30)الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ت 606هـ)، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3(1420 هـ) 32/ 228، وانظر: النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري،ت850هـ): غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت (1416هـ) 6/ 535.

(31) انظر في ذلك الدراسة الرائعة لأستاذنا الدكتور سعيد بحيري: البنية الإحالية لضمير الذات في القرآن الكريم، في: دراسات لغويةتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة (1426هـ ـ 2005م) ص112 وما بعدها.

(32)الطاهر بن عاشور (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ت. 1393هـ): التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس (1984 هـ)30/456.

(33) انظر: إسماعيل حقي (إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي, المولى أبو الفداء، ت 1127هـ): روح البيان، دار الفكر، بيروت (د.ت.) 10/479.

(34) ابن عجيبة (أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، ت 1224هـ): البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة (1419هـ) 7/ 331.

(35) الزجاج(إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ): معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت،ط1 (1408 هـ - 1988 م) 5/ 347.

(36) مكي ابن أبي طالب(أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ): الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه ، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف:أ.د.الشاهدالبوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعةالشارقة، ط 1(1429 هـ - 2008 م) 2/ 8365.

(37) السمين الحلبي (أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، ت 756هـ): الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق (د.ت.) 7/ 424.

(38) انظر على سبيل المثال:الماتريدي: (محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، ت. 333هـ): تأويلات أهل السنة: تفسير الماتريدي ، تحقيق: د.مجديباسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1(1426هـ ـ 2005 م)583/10. والنيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 6/ 535، و الكوراني (أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعيّ ثم الحنفي، ت 893هـ):غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني ـ من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس ، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو (رسالة دكتوراه)، جامعة صاقريا ـ كلية العلومالاجتماعية، تركيا (1428 هـ – 2007 م)418/1. وأبو السعود(أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ت 982هـ):إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت) 9/ 182.وابن عجيبة: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 7/ 331. وابن عاشور: التحرير والتنوير،30/ 457.

(39)الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3(1407 هـ) 780/4.

(40) الرازي:مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير،32/ 228.

(41) النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 6/ 535.

(42)ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت 542هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 (1422هـ) 504/5. وأبو حيان(أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت 745هـ):البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 513/10.

(43)الكوراني:غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني،418/1.

(44) أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 9/ 182.

(45)انظر: إسماعيل حقي: روح البيان، 479/10.

(46)الشهاب الخفاجي (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، ت 1069هـ): حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، دار النشر: دار صادر، بيروت(د.ت) 8/ 382.

(47) ابن عجيبة:البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 7/ 331.

(48)ابن عاشور: التحرير والتنوير،30/ 456.

(49)انظر في ذلك: النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 6/ 535. والكوراني:غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني ، 418/1. وأبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، 9/ 182، والبيضاوي(ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، ت 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي /بيروت، ط 1 (1418هـ) 5/ 327. والنسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت710هـ):تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1(1419هـ ـ 1998م)3/ 665. وابنجزي (أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ):التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1(1416 هـ) 2/ 499.

(50) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 30/ 456.

(51) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ت 671هـ):الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2(1384هـ ـ 1964م)20/ 131.

(52) الطِّيبي (شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: 743 هـ): فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1(1434 هـ – 2013 م) 523/16.

(53) انظر: الماتريدي: تأويلات أهل السنة ، 10/ 584، السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيمالسمرقندي، ت. 373هـ): بحر العلوم، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1413هـ/1993م)3/ 601). و مكي ابن أبي

طالب:الهداية إلى بلوغ النهاية ، 12/ 8372. وابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 500. ومحمد على الصابوني: صفوة التفاسير، دار الصابونيللطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1(1417 هـ - 1997 م) 3/ 558. وأبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ):البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابالحلبي وشركائه، ط1(1376 هـ - 1957 م) 17/3.

(54)الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، ت. 450هـ):

تفسير الماوردي ـ النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ، بيروت (د. ت.)6/ 312.

(55) القشيري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، ت 465هـ): لطائف الإشارات،تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 750/3.وابن عطية:المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5/ 504.

(56) أبو الفرج الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ت 597هـ)زاد المسير في علم التفسير ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1(1422هـ)4/ 472. والخازن (علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، ت. 741هـ): لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ط1(1415 هـ) 4/ 453.

(57) أبو حيان (أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي،ت 745هـ):البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروتلبحر المحيط في التفسير،10/ 514.

(58)أبو السعود:إرشاد العقل السليم، 9/ 182.

(59) صديقالقِنَّوجي (أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابنلطف اللهالحسيني البخاري القِنَّوجي، ت 1307هـ): فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، تحقيق: عَبد الله بن إبراهيمالأنصَاري، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا/ بَيروت (1412 هـ - 1992م)15/ 322.

(60) الفراء(أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، ت 207هـ):معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة،مصر، ط1(د.ت) 280/3.

(61)الماتريدي: تأويلات أهل السنة، 313/6.

(62)المرجع السابق، 10/ 585.

(63)الشهاب(شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي،ت. 1069هـ): حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، دار صادر، بيروت (د.ت)8/ 382.

(64)الشوكاني (محمدبنعليبنمحمدبنعبداللهالشوكانياليمني،ت1250هـ): فتحالقدير،دارابنكثير،دارالكلمالطيب،دمشق/بيروت،ط 1، (1414 هـ)5/ 576.

(65)الفيروزآبادي:بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 1/ 531.

(66) الشوكاني:فتح القدير، 5/ 576.

(67)البقاعي(إبراهيم بن عمر بن حسن الرباطبن علي بن أبي بكر البقاعي، ت. 885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 22/ 180.

(68) ابن عاشور: التحرير والتنوير،461/30.

(69)المرجع السابق.

(70)البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 180/22.

(71) الرازي:مفاتيح الغيب، 32/ 235.

(72)أبو حيان:البحر المحيط، 10/ 515.

(73) الرازي:مفاتيح الغيب، 32/ 233.

(74) البيضاوي:أنوار التنزيل، 5/ 327.

(75) الرازي:مفاتيح الغيب، 32/ 235.

(76)ابن عاشور: التحرير والتنوير،464/30.

(77) المرجع السابق.

(78)الطبري(محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت 310هـ): جامع البيان فيتفسير القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1(1420هـ ـ2000 م)24/ 535.

(79) الزجاج: معاني القرآن، 5/ 348.

(80)السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيمالسمرقندي، ت. 373هـ): بحر العلوم، تحقيق: على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1413هـ/1993م) 3/ 602.

(81) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، ت. 450هـ): النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت.)6/ 314.

(82) السمعاني(أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، ت. 489هـ): تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط1،(1418هـ- 1997م)6/ 262.

(83) البغوي(أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ت 510هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط1 (1420هـ) 5/ 289.

(84)الرازي:مفاتيح الغيب، 32/ 236.

([85])الطيبي: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، 16/ 525.

(86) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 30/ 465.

(87)انظر: المرجع السابق، 466/30.

(88) العكبري(أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، ت. 616هـ): التبيان في إعراب القرآن ، تحقيق :علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (د.ت)2/ 1296.

(89) البقاعي: نظم الدرر،22/ 181.

(90) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 30/ 466.

(91)المرجع السابق.

(92) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، 5/ 348.

(93) الرازي: مفاتيح الغيب، 32/ 236.

(94)الزجاج: معاني القرآن، 5/ 348.